فروق الذكاء بين السلالات البشرية

هل ثمة سلالة متفوقة على غيرها كل التفوق[1]

العلم لا يميل الآن الى وضع تاج التفوق العقلي على رأس سلالة بعينها من السلالات البشرية

سمعنا كثيراً عن تفوق الشعوب النوردية مما يحملنا على الاعتقاد بان ابناء تلك الشعوب هم نسل الآلهة القدماء — آلهة اليونان والرومان . ومآل ذلك انك اذا وازنت بينهم وبين سائر الشعوب حُتِّم عليك ان تحكم لهم بالتفرُّد في العقل والقوة والفضيلة . ولكن اذا راجعت مؤلفات الكتّاب الذين رفعوا الشعوب النوردية على هذه القمة رأيت معظمهم ممن لم يتمرّس باساليب البحث العلمي المنزّه الدقيق تمرُّساً يمنحهُ الحق في ان يقيم نفسهُ حكماً على سائر السلالات البشرية

والواقع ان موضوع التفوُّق بين السلالات لا يُحَلُّ الاّ على يد الثقة الخبير فيه . فاذا كان لديك مشكل في الكيمياء ذهبت به الى كيماوي حلّيه ولم تذهب قط الى متعلّم يعنى بشؤون الكيمياء فقط ! واذا شئت ان تبني مصنعاً على الاصول العلمية ذهبتَ الى مهندس بارع واذا اصيب ابنك بالجدري تلمست معونة طبيب معروف . فثمّة في فروع العلم ما لهُ حق الفصل في موضوع تفوُّق النورديين دون غيره . وعلى عاتق الانثروبولوجي والسيكولوجي يقع عبء الفصل في هذه المسألة . وحكمهما يختلف اختلافاً كبيراً عن رأي الكتّاب الذي يضعون النورديين في الذروة وسائر السلالات البشرية في الحضيض

لم يثبت لنا بعد ، انْ ثمّة فروق في مرتبة الذكاء بين السلالات المختلفة

لننظر اولا في ما يقوله الانثروبولوجي في الموضوع . انهُ يدرس تاريخ السلالات القديم . فموضع عنايته مرتبط بالتاريخ اولاً . اين نشأت هذه السلالة ؟ ولماذا هُزمت الشعوب المستطيلة الرؤوس في اوربا امام الشعوب المستديرتها من نحو عشرة آلاف سنة ؟ من اول من دجّن الحيوانات ؟ واية سلالات خلقت الحضارات الزاهرة في مصر واميركا الوسطى ؟ هذه هي المسائل التي يعنى بها الانثروبولوجي

(١) مترجمة من مقالة في السيكتفك اميركان لدكتور راستا بروكس الاستاذ المساعد لعلم النفس في كلية كولمبيا

فاذا سألتهُ رأيهُ في ذكاء السلالات قال : « فكرة حسنة . ولكن لنبدأ البحث في تحديد ما تنطوي عليهِ لفظة سلالة » . وهنا اول صدمة نصطدم بها . لان الانثربولوجي يبني تحديده لمعنى السلالة على الصفات الطبيعية والجسمانية التي يتصف بها الناس . فابناء شمال اوربا شقر الشعر زرق العيون طوال القامة رؤوسهم عالية ومرتفعة وانوفهم دقيقة . فلا يصح ان نصف شعباً او سلالة بانهم « نورديون » الاَّ اذا اتصفوا بهذه الصفات . ثم هنالك سلالتان اخريان في اوربا بحسب التقسيم المسلَّم بهِ وهما السلالة الالبينية وهي التي تقطن اواسط اوربا ولكنها انتشرت الى اقاصيها والسلالة المنسوبة الى البحر الابيض المتوسط . فالالبيتون قصار القامة سمر الشعر والعيون وذوو رؤوس مستديرة . اما شعوب البحر الابيض فقصار ايضاً ولكنهم يميلون الى الهيف سود الشعر سمر العيون ورؤوسهم مستطيلة منخفضة

فاذا شئنا ان نتكلم عن فروق الذكاء بين السلالات البيضاء وجب ان نحصر كلامنا في هذا التقسيم او في ما هو من قبيلهِ — اي يجب ان يكون التقسيم مبنيًّا على الصفات الطبيعية والجسمانية. فالانكليز ، جريًا على هذا ، ليسوا بسلالة . هم امة . ومن العبث ان نشير مثلاً الى انحطاط السلالة الايطالية — اذا سلَّمنا جدلاً بانحطاط الايطاليين — لانهُ لا يوجد شيء اسمهُ سلالة إيطالية . وانما هناك امة ايطالية مؤلفة من السلالات الثلاث المذكورة — النوردية والالبينية والمتوسطة البيضاء . فالنورديُّ الذي يرمي الايطاليين بحجر من هذا القبيل لا يأمن ان يصيب منهم رجلاً من ابناء سلالتهِ

وعلى ذلك فاليهود ليسوا سلالة بهذا المعنى . فمن اليهود قوم طوال القامات وآخرون قصارها . ومنهم زرق العيون ومنهم سمرها . ومنهم شقر الشعور ومنهم قاتموها . ومنهم مستطيلو الرؤوس ومنهم مستديروها . ففي استطاعتك ان تبرهن على ان اليهودي متفوق او منحط بحسب رغبتك ، ولكن ذلك لا علاقة لهُ قط بمسألة السلالة التي نحن في صددها . حتى اذا نظرنا في زنوج الولايات المتحدة وهنودها الحمر وجدنا اختلاطهم بعضهم من جهة وبالبيض من جهة اخرى يجعل الكلام عن سلالة زنجية صريحة او سلالة هنود حمر صريحة متعذراً

فالنقد الاول الذي يوجههُ الانثربولوجي الى هذه المسألة يهدم اكثر ما قيل في موضوع الاختلاف بين السلالات المختلفة من حيث الذكاء . لان جلَّ ما قيل انما ينطبق على الامم المختلفة — والامة كما تقدَّم مزيج في الغالب من سلالات مختلفة

ثم ان الانثربولوجي ينظر الى المسألة من وجهتها التاريخية . فنحن نميل في الغالب الى النظر في الامور كما هي لا كما كانت في الماضي القريب او البعيد . فاركان حضارتنا الحالية ترتدُّ الى مصر وبابل واليونان . من هذه البلدان خرجت اصول حياتنا المدنية كتدجين الحيوانات وزراعة

النباتات الغذائية . فالتورديون في نظر الانثربولوجي لم يؤدوا اية خدمة في سبيل هذا حتى في القرن الخامس عشر بعد المسيح كان التورديون لا يزالون اقواماً متوحشين اذا قيسوا بسكان جنوب اوربا . فالانثربولوجي يعرف هذه الحقيقة ويعترف بها . ثم هو يعرف كذلك ان هنود اميركا الوسطى المحتقرين كانوا قد شيدوا حضارة سامية قبل القرن الخامس الميلادي لما كان السكسون لا يزالون قرصاناً لا همَّ لهم الا النهب والتدمير . وان الصينيين كانوا قد بنوا سورهم العظيم لما كان التورديون يحاولون استعمال الحديد . وان المصريين والبابليين كانوا قد استنبطوا لغة للكتابة وابدعوا ثقافة عالية لما كان سكان شمال اوربا في بدء محاولاتهم تدجين الحيوانات البرية وزراعة بعض الحبوب

فالتورديُّ في بناء الحضارة العالية كحديث النعمة بعد الحرب ، تراه موفقاً في كل اعماله ولكن تاريخهُ اذا قيس بتاريخ غيره قريب العهد جداً

ثم اذا التفتنا الى ناحية علم النفس ، وهو الفرع الآخر من فروع العلم الذي له شأن في ابداء حكم في هذا الموضوع وجدنا ان العالم النفسي لا يزال كثير التردد والحيرة . فهو يحاول ان يقيس الذكاء بما يدعوه « مقاييس الذكاء » وينجح في عمله اذا طبقهُ على تلاميذ مدرسة نشأوا في بيئة واحدة او بيئات متماثلة . ولكنهُ يتململ ويقلق اذ يأخذ غيره المقاييس التي ابتدعها لغرضه الخاص ويحاول تطبيقها على ابناء سلالات الشعوب الاخرى

فأخذ حائل اللغة . فلا حق لي ان امتحن ذكاء طفل من الهنود الحمر « بمقياس ذكاء » مكتوب باللغة الانكليزية اذا لم يكن ذلك الطفل قد تعلم اللغة الانكليزية تعلماً وافياً كالاطفال الذين وُضع لهم المقياس . وقد امتحن هذا القول في حزار الفلبين بطريقة لا تدع مكاناً للريب . ذلك ان طائفة من الاطفال عدد افرادها ٣٢ الفاً اعطوا مقاييس ذكاء متعددة . وكان هؤلاء الاطفال لا يجيدون التكلم باللغة الانكليزية . فلما جمعت النتائج وبوّبت ظهر ان مرتبة ذكائهم ادنى جداً من مرتبة ذكاء الاطفال الاميركيين الذين من عمرهم . ولكن لما اعطوا « مقاييس ذكاء » تمتحن ذكاء الطفل من غير التجاء الى اللغة ثبت ان مرتبة ذكائهم مساوية لمرتبة ذكاء اقرانهم من الاميركيين

والعالم النفسي لا يتغافل عن مسألة الزنجي في الولايات المتحدة . اذ يقول بعضهم هو ذا الزنجي يعرف الانكليزية ولكن مرتبة ذكائه ادنى من مرتبة ذكاء اقرانه البيض . لان الذكاء كما يقاس بمقاييس الذكاء يتوقف الى مدى بعيد عن البيئة التي نشأ فيها الممتحَن . ومن المؤكد ان الزنجي الاميركي لا يساوي الابيض في هذه الامتحانات . ولكن كل من خبر احوال الاجتماع في جنوب الولايات المتحدة الاميركية حيث يقيم معظم الزنوج الاميركيين

لا يستطيع ان يدعي ان الزنجي اتيحت له فرص التعلم والتثقف كما اتيحت للبيض. ونسمع كثيراً عن انحطاط الزنوج (الاميركيين) ولكن ثمة حقيقة او حقيقتان ينظلهما كل داعٍ مؤيد لتفوق البيض. فالزنجي الاميركي الساكن في شمال الولايات المتحدة يفوق الزنجي الاميركي الساكن في جنوب الولايات المتحدة، ذكاء اذا صح لنا ان نعتمد على امتحانات الجيش الاميركي الواسعة النطاق التي تمت في اثناء الحرب الكبرى. فالاحوال البيئية التي ينشأ فيها الممتحن لها شأن كبير في امتحان الذكاء يساوق شأن التعلم في المدارس وغيره. والدارس النفسي يعرف هذه الحقائق ويحترز كل الاحتراز من اطلاق الآراء من غير استنادها الى ادلة كافية. وما يسيء الى العلم ان كتّاب الصحف وبعض المجلات المصورة يقارنون نتائج بعض الامتحانات ويبنون عليها نتائج لا تسوغها الحقائق

وللبيولوجي رأي في الموضوع. فبعض الكتاب يذهب الى ان الهنود الحمر او سكان جزائر اتلانتيكي الجنوبية اخذوا يبيدون امام فتوحات الانسان الابيض، مما يدل على ضعفهم وانحطاطهم عن مستواه العقلي — فحجتهم مبنية على ان عجز هؤلاء عن الوقوف امام تيار الحضارة الاوربية او الاميركية دليل على ضعفهم العقلي!

ولكن الحجة فاسدة من اساسها. لان التيار الذي لا يستطيع هؤلاء الاقوام مقاومته هو تيار الامراض التي يصاب بها البيض وينقلونها معهم ولا قبل لسكان تلك الجزائر باحتمالها. فالثابت من مطالعة تاريخ الحملة الاسبانية على المكسيك ان المكسيكيين صدّوا كورتز عن مدينة المكسيك لدى هجومه الاول عليها. ورغم تسلح الاسبانيين بأدوات الحرب الفولاذية والبارود قاومهم الهنود الحمر مقاومة عنيفة فردوهم خاسرين. ولكن الاسبانيين جاءوا بمرض كان خير معوان لهم في نهاية الامر على افتتاح المدينة وغزوة البلاد. ذلك ان ميكروبات الجدري تفشت في المدينة بعد الهجوم الاول فوجدت فيها مرتعاً خصباً فلما حاول الاسبانيون ثانية افتتاح المدينة كان نصف سكانها من الذكور قد ماتوا بالجدري فسهل على كورتز اخضاع الباقين

وكل من يتصل بالاسكيمو يعجب بذكائهم ومضاء عقولهم. ولكن الاسكيمو مقضيّ عليهم لانهم لا يستطيعون ان يقاوموا امراض الانسان الابيض فالسل والجدري يفتكان بهم فتكاً ذريعاً. وسكان الجزائر في جنوب المحيط الباسفيكي يشبهون الاسكيمو من هذا القبيل وانقراضهم ماض على قدم وساق لانهم لا يستطيعون مقاومة امراض البيض

فالانسان الابيض يشعر — وشعوره طبيعي — بان هذه الاقوام ضعيفة منحطة فهي لا تستطيع ان تقاوم الامراض مقاومته لها. فيحتقرهم من جميع الوجوه ويحكم عليهم بقلة الذكاء وضعف العقل. ولكن الذكاء لا علاقة له قط بهذا كله. والبحث العلمي الحديث اشار الى ان الاوربي

نفسهُ اذا عاش في الاحوال التي يعيش فيها هؤلاء فقد قوتهُ على المقاومة. فالجرذان البيض مثلاً تولد سلائل ضعيفة اذا حُكِم عليها بالاغتذاء بطعام يحتوي على كحول او اذا اصيبت غددها الدرقية بما يضعفها

هذا فرع جديد من فروع البحث والظاهر مما تم فيه حتى الآن ان كل ما يضعف الجسم كالكحول وقلة الغذاء والمرض يفضي الى توليد سلائل ضعيفة ولهذا تحط السلالة . فاذا صحت هذه الاشارات وأيدتها المباحث المقبلة تبين لنا كيف يفضي مرض يتفشى في قوم لم يعرفوهُ من قبل ، كالملاريا ، على سلالة قوية صلبة المراس

فاذا جمنا النتائج التي نخرج بها من ميادين البحث المرتبطة بهذا الموضوع تبين لنا ان العلم لايميل الآن الى وضع تاج التفوق العقلي على رأس سلالة بعينها من السلالات البشرية

ولكن هل يستطيع البحث العلمي ان يحل هذه المشكلة حلاً نهائيًا . قد يمكن ذلك . ولكن العقبات التي تحول دونهُ كثيرة جدًّا . فأولاً يجب ان يتناول الباحثون في بحثهم السلالات لا الامم . لقد ظهرت مؤلفات كثيرة عن تفوق النورديين . ولكني لا اعرف احداً من الباحثين تناول في بحثهِ جماعة نوردية صريحة ووازن بينها وبين جماعة البينية صريحة او جماعة صريحة من سلالة البحر الابيض المتوسط . قد يبدو في هذا التصريح شيء من القسوة على امثال غراث Grafth الذي بحث بحثاً علميًّا صحيحاً في الموازنة بين جماعات من الهنود الحمر وجماعة من البيض ولكن يرجح عندي ان غراث نفسهُ لايستطيع ان يدعي انهُ عُني كلَّ العناية بتفاوت الجماعات التي تناولها وعدم اختلاط دمها بدم سلالة اخرى

ثم هنالك صعوبة اخرى اذ لابدَّ من استعمال مقاييس الذكاء لامتحان ذكاء جماعة من الجماعات. فلنفرض ان باحثاً اختار جماعة نوردية وجماعة من سلالة البحر الابيض المتوسط. وقد مرَّ بنا ان اللغة حائل كبير دون تطبيق معظم المقاييس الموضوعة لقياس الذكاء. فعليهِ ان يستعمل مقاييس لاتقوم على اللغة. ولكن ذلك لا يثبت له ان الاحوال الاجتماعية والصحية والتعليمية التي نشأت فيها الجماعات متماثلة. وهذه الاحوال لها اثر في ذكاء كل سلالة وقوة بناها العقلية. حتى اذا سلمنا جدلاً اننا نتمكن من تحقيق هذا الفرض . فالنتيجة التي نخرج بها تنطبق على حالة السلالات اليوم . ولكن اين السلالات التي شيدت الاهرام وبنت حضارة اليونان القديمة . كانت تلك السلالات في عصرها زعيمة الحضارة اذ كان سكان شمال اوربا مستغرقين في جهل البداوة . وكما ارتقى النوردي الى الذروة وهبطت سلالات من الذروة هكذا توجد الآن سلالات تحاول ان تتسلق سلم الارتقاء وقد يحدث ما يمكنها من التفوق على السلالات النوردية كما تفوقت هذه على من تقدمها . هذه تعاليم التاريخ. فلكن متصفين في الحكم على السلالات